معهم وتنتهي خدمة الله تعالى الذي هي اليه اخر الامر وهكذا ولا يبقى لك الا هوا بدا لا بد من
والحاجة كلها اليه والتوكل عليه والاعتصام كله به في كل حال وعند كل شيء وهو لا بد
ومنه لا شيء يكن له فتامل بما منه حكيم لعلك في شيء ان شاء الله تعالى والله تعالى ولي
الهداية بفضله واما النفس فهي اصعب ما تقاسيه من هذه الاشياء ورد ادا فانها
وهوا اختيار انتهى فهي في حال الشهوة بهيمة وفي حال الغضب سبع وفي حال
المصيبة تراها طفلا وفي حال النعمة تراها فرعون وفي حال الجوع تراها مجنونا وفي
حال الشبع تراها مختالا ان اشبعتها بطرت وان جوعتها صاحت وجزعت فهي
كما قال القايل :. هي كحمار السوء ان اقضمته رمح الناس وان جاع نهق
ولقد صدق بعض الصالحين حيث قال ان من رداة هذه النفس وجهلها بحيث اذا
همت بمعصية او انبعثت للشهوة لو تشفعت اليها بالله سبحانه ثم برسوله وجميع
انبيائه وبكتبه وبجميع السلف الصالحين من عباده وتعرض عليها الموت والقبر
والقيامة والجنة والنار لا تعطي الانقياد ولا تترك الشهوة ثم استقبلتها بمنع
رغيف فانها تسكن وتترك شهوتها وجهلها وابلى ابلي الى جل ان تجعل عنها فانها كما قال
الغني العالم جل جلاله ان النفس لامارة بالسوء وكفى بهذا تنبيها لمن عقل ولقد
بلغنا عن رجل من بعض الصالحين يقال له احمد بن ارقم البلخي انه قال جاءتني نفسي بالخروج
الى الغزو فقلت سبحان الله ان الله تعالى يقول ان النفس لامارة بالسوء وهذه تامرني
بالخير لا يكون ذلك ابدا ولكنها استوحشت فارادت لقاء الناس لتستريح اليهم ويتسامع
الناس بي فيستقبلوني بالتعظيم والبر والاكرام فقلت لها لا انزلك العمران ولا انزل الى
معرفة فاجابت والساعات الكشف بكرة فقلت الله تعالى اصدق فقلت لك اقاتل العدو
وما الصوم تشكو منه اول فقبل مع انه كثيرة مما اراد بك فاجابت الى ذلك
فقلت يا رب نبهني بك فاني متهم لها مصدق لك فخطر شيء كانها تقول انك
يا احمد تقتلني كل يوم مرات بمنعك اياي من شهوة مرات وبخلافك فلا يشعر به
احد فان قتلت مرة واحدة نجوت منك ويتسامع الناس فيقال استشهد احمد ويكون لي شرفا وذكرا قال فقعدت ولم اخرج الى الغزو في ذلك العام
فانظر الى خداع النفس وغرورها ترائي الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد فهو في القصور الغافل
واحسن ثم تنوا نفسك لانها من عوايلك :. فالنفس اخبث من سبعين شيطانا
فتنبه رحمك الله لهذه الخداعة الامارة بالسوء وكن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب
وتسلم ان شاء الله تعالى ثم عليك بالجامها بالتقوى واحيلة لها اصلها واعلم
ان الطاعات احيانا وطوار العبادة شيئان فعل الاكتساب وترك الاجتناب فالاكتساب
فعل الطاعات والاجتناب الامتناع عن المعاصي والسيئات وهو التقوى وان شغل
الاجتناب على كل حال اسلم واصلح وافضل واشرف للعبد من شغل الاكتساب ولذلك اشتغل
المتقدمون من اهل العبادة الذين هم في اول درجة الاجتهاد بشغل الاكتساب كل

فهمهم

فهمهم بان يصوموا نهارهم ويقوموا ليلهم ونحو ذلك واشتغل المتقدمون او سوا
البصائر من اهل العبادة بشطر الاجتناب انما همتهم ان يحفظوا قلوبهم عن الميل
الى غير الله سبحانه ويكفوا بطونهم عن الفضول والسنتهم عن اللغو واعينهم عن النظر
الى ما لا يعنيهم ولهذا قال ابو الشابت من العباد ليوسفين الناس من حبيبت
اليهم الصلاة فلا يوثرون عليها شيئا وهي عمود العبادة بالثبات لله تعالى
والصوم والتضرع والابتهال ومنهم من حببت اليهم الصوم فلا يوثرون عليه
شيئا ومنهم من حببت اليهم الصدقات فلا يوثرون عليها شيئا يا يونس وانما
معيار كل هذه الخصال اجعل صومك الصمت عن كل سوء واجعل صدقتك كف الاذى
فانك لا تتصدق بشيء افضل منه ولا تصوم بشيء ازكى منه فاذا علمت ان جانب
الاجتناب اولى بالرعاية والاجتهاد فان حصل لك الشطران جميعا الاجتناب والا
كتساب فقد استكمل امرك وحصل مرادك ولقد سلمت وغنمت فان لم تقدر الا على
احدهما فليكن ذلك جانب الاجتناب فتسلم ان لم تغنم والا خسرت الشطرين
جميعا وما ينفعك قيام الليل وتعبه ثم تحبطه بارادة واحدة وما صيام النهار بطويل
وتفسده بكلمة واحدة ولقد روينا عن ابن عباس رضي الله عنه انه قيل له ما تقول
في رجلين احدهما كثير الخير كثير الشر والاخر قليل الخير قليل الشر قال لا اعدل بالسلامة
شيئا ومثال ما قلنا ما قال المريض وذلك ان معالجة المريض نصفان نصف هو الدواء
ونصف هو الاحتماء فان اجتمعا فكانك بالمريض فقد برئ وصح والا فالاحتماء به اولى اذ لا ينفع
دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء ولقد قال صلى الله عليه وسلم
اصل كل دواء الحمية المعنى بها والله اعلم انها تغني عن كل دواء ولذا يقال ان الهنود اذا مرض
لهم مريض معالجتهم الحمية يمنع المريض عن الاكل والشراب والكلام عدة ايام فيبرا ويصح
بذلك لا غير فتبين لك بهذه الجملة ان التقوى ملاك الامر وجوهره والمهم الاكبر فيه
العليا من العبادة فعليك ببذل المجهود في ذلك وصرف جل العناية اليه والله تعالى ولي
التوفيق فصل ثم راع هذه الاعضاء الاربعة التي هي الاصول الاول العين
وحسبك فيه ان مدار الامر الدنيا والدين على القلب وان حضر القلب وشغله وفساده
في الاكثر من العين ولذلك قال علي رضي الله عنه من لم يملك عينيه فليس للقلب فيه قيمة
والثاني اللسان وحسبك ان فيه ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله
للعبادة والطاعة وان تضع العبادة واحباطها وفسادها في الاكثر من قبل اللسان
وفيما روي ان احد العباد السبعين لم يتفقوا على عبادتهم بشيء وافضل من الصبر عن
الكلام بعد طول ثم عاد الى ذلك فقال فلا يحرس عنك شيئا اكثر من حفظ لسانك
ولا يخرجن ما ليس لك من سلامة صدرك بهذه الهنة ثم اذكر النفس التي تكلمت فيه
بفضول ما كان يجري لو ظلمت استغفر الله فيها برابي ساعة عن ابن جبير انه
لك بتربيع راس مالك وتقول لا اله الا الله فيكون لك من الاجر والربح ما لا يحيط به وهمك